نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

د/ فوزية محمد نوح
قسم التاريخ- كلية الآداب – جامعة الزقازيق

مقدمة:

التعليم هو الصناعة الأولى والأهم لأى دولة تستهدف تعبئة وتوجيه الطاقات البشرية من أجل النهوض والرقى والتقدم لمجتمعها ومما لا شك فيه أن النظام التعليمي بالمغرب قطع عدة أشواط على درب بناء مدرسة تستجيب للحاجيات والطلبات المتزايدة على التعليم، وإذا كانت المبادئ الأربع قد شكلت ولزمن طويل بوصلة تقييم نجاح هذا النظام وأرضية لنقد إنجازاته، فقد أضحى الميثاق اليوم بمثابة المرجعية للقيام بتلك المهام اعتباراً لكونه يمثل أخر البرامج الإصلاحية المقترحة للتعليم.

إن نظم التعليم فى بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط كما رسمته هذه الدراسة – لم تكن مجرد رصيد معرفى يلقن للمتعلم وإنما كان عبارة عن اتجاه، وفلسفة وسياسة متبعة خصوصاً عندما ارتبط أكثر بالمدارس على حساب الرحلة العلمية، وبذلك أصبحت المدرسة النظامية الوسيطية تتحكم فى سوسيولوجيا الأطر التى تخرجها باعتبارها إفراز لوضع اجتماعى، وقانونى، وسياسى لتحدد بذلك علاقة خريجيها بالمجتمع والدولة والنظام التعليمى ذاته، هذا الأخير الذى لم يكن بمحيد عن المجتمع والسياسة بل تأثر سلباً وإيجاباً بتحولات العصر الوسيط، مما جعل التعليم يساهم فى الحراك الاجتماعى آنذاك.

وقد ارتبطت نظم التعليم فى بلاد المغرب منذ الفتوحات الإسلامية إلى يومنا هذا بالمدارس القرآنية أو التعليم الإسلامي أو التعليم الأصيل، وقد قامت هذه الدراسة بتلقين العلوم النقلية كالعلوم الشرعية والعلوم اللغوية والمعارف الأدبية عن العلوم العقلية والكونية، وقد ساهمت هذه المدارس فى نشر الدين الإسلامي والتعريف به في كل أنحاء بلاد المغرب.

ويشير مفهوم النظم التعليمية لبلد من البلدان إلى الإطار العام للتعليم وفلسفته وأهدافه وتنظيمها المؤسساتى والإداري على ضوء قيمه الدينية والاجتماعية وأرثه الحضارى والتاريخى وثرواته المادية والبشرية، وفى إطار تفاعل إيجابى مع هذه العناصر مجتمعة مع الرؤية فى النظم التعليمية، لأن الأنظمة التعليمية محكومة بالتطور لأنها موجهة لمجتمعات دائمة التحول والنمو وذلك فنجد فى الدول المتقدمة الناجحة فى نظمها التعليمية أنها مرنة ومنفتحة على التطور تعد العدة للمستجدات فتأخذ بعين الاعتبار المراحل التى يمر منها المجتمع وحاجيات كل مرحلة عكس الأنظمة التعليمية فى المجتمعات النامية التى تحكمها أنظمة استبدادية تستثمر فى الجهل وتفتقد الرؤية المستقبلية فى بناء السياسة التعليمية وذلك تبقى نظمها منغلقة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدارسة للوصول إلى مجموعة من الأهداف ومن أهمها:

١- التعرف على دور التعليم فى نهضة الدول الإسلامية بصفة عامة وبلاد المغرب بصفة خاصة.

٢- الوصول إلى العلاقة الحميمة بين التعليم فى كل من بلاد المغرب والأندلس وتأثيره فى مختلف نواحي الحياة خلال تلك العصور.

٣- إبراز أن نظام التعليم فى بلاد المغرب فى العصر الوسيط لها أصول وتأثيرات فى نظم التعليم فى بلاد الأندلس.

٤- التأكيد على أن نظم التعليم فى بلاد المغرب والأندلس فى العصر الوسيط لم تكن مجرد رصيد معرفى يلقن للمتعلم وإنما كان عبارة عن اتجاه وفلسفة وسياسية.

أهمية هذه الدراسة:

تكتسب هذه الدراسة أهمية للنقاط الآتية:

١- أن التعليم في العصر الحاضر فى بلاد المغرب مرتبط بجذور التعليم فى العصر الوسيط يتأثراً سلباً وإيجاباً وبالتالى لابد من علاج أوجه القصور لتلافيها وتدعيم نقاط القوة.

٢- تأكيد أهمية دور وسائل التعليم ومؤسساته فى بلاد المغرب فى العصر الحديث فى النهوض والرقى بالمجتمع فى جميع مجالات ونواحى الحياة.

٣- إن الحكام وولاة الأمور عندما يدعمون مؤسسات التعليم فإنهم يساهمون فى تدعيم بنيان مجتمعهم علمياً وخلقياً واجتماعياً وثقافياً.

٤- أن الحضارة الإسلامية هى حضارة خالدة عبر العصور وأن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان ولن يشاده أحد إلا غلبه.

خطة البحث

وقد قسمت البحث إلى مقدمة و ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: أصول نظم التعليم في بلاد المغرب

المبحث الثانى: نظم التعليم فى بلاد المغرب وتأثيراتها الأندلسية

ثم ختمت البحث بخاتمة توضح رؤية الباحثة لجوانب نظم التعليم فى بلاد المغرب سابقاً وحالياً، ورؤية مستقبلية لكيفية إصلاح نظم التعليم فى بلاد المغرب من أجل مستقبل أفضل لأجيالنا القادمة.

والله نسأله التوفيق والسداد

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة طه

أصول نظم التعليم فى بلاد المغرب

أولاً: نظم التعليم فى بلاد المغرب بين الرحلة العلمية والمدرسة النظامية:

فى هذا الجزء سنحاول أن نرسم صورة لأشكال النظام التعليمي خلال العصر الوسيط من خلال الرحلة العلمية والمدرسة النظامية، فلقد اكتسبت الرحلة العلمية أهمية فائقة ولم يكن المجتمع يثق فى العالم الذى اكتسب علمه دون رحلة، وتعود أهمية الرحلة فى وظيفتها التربوية وما وفرته للطالب من إمكانيات وقدرات، حيث كثرت لقاءات المشايخ وتعدد الوجهات سواء داخل المدن والأندلسية، أو فى اتجاه المشرق دون تعصب للمذهب المالكي رغم تمسكهم الشديد به، هذا وقد شملت الرحلة العلمية كذلك العبيد والموالي المغاربة والأندلسيين وقد كان من محصلة الرحلة العلمية بروز مراكز استقطاب ارتبطت شهرتها بالنشاط التعليمي، لكونها شكلت قبلة للعلماء والمدرسين والطلبة مثل: قرطبة واشبيلية وسبتة ومراكش وفاس.

ورغم الدور الأساسي الذي لعبته الرحلة العلمية فى تطوير التعليم بالمغرب والأندلس إلا أن أهميتها تراجعت لفائدة التعليم النظامى الذى رسخته المدارس بعد ذلك حيث انتقل "التعليم المدرسي" بموجب ذلك من رصيد معرفي إلى فلسفة واتجاه معينيين، وأصبحت المدرسة تتحكم فى "سوسيولوجيا المتعلم" من حيث علاقته بالمجتمع والدولة. [١]

حال التعليم فى بلاد المغرب:

تعتبر الكتاتيب والزوايا والمساجد من أهم المؤسسات التى اضطلعت بدور التعليم فى العصر الوسيط، فقد دأب أهل المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامى على تعليم أولادهم فى هذه المؤسسات الدينية.

كان تعليم الفتيان فى مراحله الأولى فى الحواضر يتم[٢] فى زاوية المسجد. أو أمام المحراب[٣]، لكن بعد الضيق الذى عرفته المساجد، وكذلك لنهى الفقهاء على تعليم الصبيان فى المساجد تجنباً للنجاسة[٤]. انفصل فى أماكن مستقلة[٥] تسمى الكتاتيب. وإذا كانت المؤسسات التعليمية فى المدن تحظى بالقدر الكبير من الاهتمام. والرعاية، وكثرة الأوقاف

---

[١] سعيد بنحمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، ع١٢، منشورات الأمن، المغرب، ٢٠١١م، ص ١٢٣

[٢] "الكتاب موضع تعليم القرآن، وفى الأساس تطلق على الصبيان لا المكان"، (محمد مرتضى الزبيدى، تاج العروس، ج٣٧، تحقيق مصطفى حجازى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ٢٠٠١م، ص ١٠٤.

[٣] بشير رمضان التليسى، " الاتجاهات الثقافية فى الغرب الإسلامى"، دار المدار الإسلامى، بنغازى، ليبيا، ٢٠٠٣، ص٣٦٦.

[٤] الونشريسى (أبو العباس أحمد بن يحى ت ٩١٤هـ/ ١٥١١م)، "المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، ج٧، تحقيق: محمد حجى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨١م، ص٣٦.

[٥] بشير رمضان التليسى، المرجع السابق، ص٣٦٦.

عليها؛ فإنها لم تنل نفس الحظ فى البوادى، بل وصل الأمر فى عدد من القرى إلى امتناع بعضهم من إقامة الجماعة، وبناء المسجد وأخذ المؤدب لقراءة أولادهم[٦].

كان تعليم الفتيان فى البادية يتم فى مكان واحد هو الجامع[٧]، بغض النظر عن مساحته، فأغلب المساجد فى البادية كانت بسيطة وصغيرة قدر كفاية سكانها، تخصص جهة بداخله أو بجانبه لتعليم الصبيان، وكان الأثاث الموجودة فيه بسيطاً عبارة عن حصير مصنوع من الحلفاء، أو الدوم، وألواح خشبية، وأقلام من القصب، وقطع من الصلصال، ودواة من الصمغ والصوف، وجرار للماء، وبعض الأوانى البسيطة[٨]؛ كما تجدر الإشارة إلى وجود "خيمة مدرسية عند البدو" كانت تستعمل لتعليم الصبيان وفى نفس الوقت فهو مصلى كبير تقام فيه الصلوات[٩].

كما تم إسناد التعليم فى المرحلة الأولى (أى الابتدائية) إلى معلم القرآن. ويسمى أيضاً بالمؤدب[١٠]، ولكن لم يكن سهلاً على أهل البادية إيجاد معلم لأبنائهم، فالمعلمون كانوا يفضلون المدن والحواضر، بسبب ارتفاع الأجرة فيها عن البادية؛ ومعظم الذين كانوا يقدمون على التعليم فى البادية كانوا ممن يتعففون ويرضون بالقليل محتسبين ذلك لوجه الله[١١]؛ ومهما يكن من أمر فإن معلم الصبيان فى الكتاب لم يكن يضمن للمعلم عيشة راضية، فقد وصفها البعض بأنها حرفة محتقرة[١٢]، كما كان المعلم يقوم بوظائف أخرى حيث كان أهل القرية يتعاقدون مع معلم لتعليم أبنائهم، وفى نفس الوقت يقوم بالإمامة والآذان[١٣].

ثانياً: المؤسسات والأماكن التعليمية:

---

[٦] الونشريسى، المعيار، ج١، ص١٣٩.

[٧] على عشي، "المغرب الأوسط فى العهد الموحدى، مذكرة ماجستير فى التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ٢٠١٢، ص١٠٥.

[٨] قاسمى بختاوي؛ التعليم بالكتاب بالمغرب الأوسط أيام حكم بنى عبد الواد"، دورية كان التاريخية، العدد الثانى عشر، جويلية ٢٠١١، ص ٣٤٠٣١.

[٩] عبد الحليم عويس، دولة بنى حماد، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، مصر، ص٢٥٣.

[١٠] الونشريس، "المعيار"، ج١، ص١٣٩.

[١١] الونشريسى، " المعيار"، ج٨، ص٢٥.

[١٢] بشير رمضان التليسى، المرجع السابق، ص٣٧٢.

[١٣] أبي زكريا يحى بن موسى المازونى التلمسانني،" الدرر المكنونة فى توازل مازونة"، مخطوط، تحت رقم ٨٢٧، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ورقة ٢٤٠و.

١ – الكتاب:

وضع النبى فى مسجده مكاناً للتعليم والتعبد[١٤].وكانت الكتاتيب من البنايات البسيطة المضافة إلى المسجد، أو تكون فى بيت المعلم نفسه، أو فى حانوت يستأجره المعلم، أو سطح دار[١٥]. وبالمغرب العربى بدأت هذه المرحلة بعد اكتمال عمليات الفتح العسكرى وبناء المساجد وانتشار الإسلام بنحو ثابت، لذلك أخذت الناس تتجه إلى تعليم أبنائهم علوم القرآن التى لم يعرفوها، وكان الفضل للعلماء الذين واكبوا الحملات العسكرية[١٦].

وانتشرت الكتاتيب فى بلدان المغرب العربى فى جميع مدنه الكبرى، مثل: مراكش وسبتة وفاس والقيروان، وهى بجوار المساجد وقد حرص المرابطون، والموحدون والمرينيون، والحفصيون على نشر علوم القرآن فى الكتاتيب من حيث تعليم الصغار هذه العلوم وتأكيدها[١٧].

اهتم المرابطون والموحدون بمساعدة الأيتام على الحصول على التعليم بالكتاتيب حتى أن بعض المحسنين كانوا يقدمون المساعدة للأيتام وأبناء الفقراء بدفع أجور تعليمهم، وشجع هذا الأمر على نشر التعليم فى المغرب بدرجة كبيرة، مما رفع المستوى العلمى فى المغرب، لأن مذهب مالك لا يجيز إدخال تعليم الصبيان داخل المسجد، وذلك للمحافظة على طهارة المسجد[١٨].

وهناك نوع من المعلمين يسمى (المربى) وهذا كان يتخذه الأمراء والحكام لتربية الأبناء وتعليمهم، وكان هناك مربون، يعلمون فنون القتال والفروسية حتى يكون مهيأ لإدارة شئون البلاد[١٩].

وقد تطورت الكتاتيب أيام الحفصيين والمرينيين، حيث أخذت أماكن معروفة، وأخذت تدرس علوم اللغة والنحو والفقه والشعر وأيام الملوك السابقين[٢٠]. وكانت (الفلقة)

---

(١٤) ابن سحنون محمد (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): آداب المعلمين، منشور ضمن كتاب الفكر التربوى عند ابن سحنون والفاسى، إشراف عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥، ص٥٥.

(١٥) أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص٦٤.

(١٦) ابن سحنون: آداب المعلمين، ص٥٦.

(١٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص٢٠٩.

(١٨) يوسف بن يحيى بن عيسى التادلى ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تحقق: أودلف فورة، مطبوعات إفريقية الشمالية، الفنية، الرباط، ١٩٥٨م، ص٤٥٩.

(١٩) ابن سحنون: مرجع سابق، ص٧٨.

(٢٠) ابن خلدون، مرجع سابق، ص٢١١.

مشهورة فى عقاب الصبيان عند الكتاب، وهى من أشد العقوبات[٢١]. وقد خصص المرابطون والموحدون أماكن لنوم الصبيان، وكذلك إعطائهم أجور تساعدهم على الدراسة، لأنها كانت تعتمد على سياسة تربية الجيل لأجل إعداده مستقبلاً لإدارة شئون البلاد فى المناصب الإدارية والسياسية[٢٢].

٢- المسجد:

كان المسجد فى بلاد المغرب بنحو عام له قدسية منزلة كبيرة عند أهل المغرب فالمسجد لم يكن مخصصاً للصلاة فقط، بل كان يمثل مركز الحياة فى العصور الوسطى منذ ظهور الإسلام، وأهم مهمة اضطلعت بها الجوامع بعد الصلاة هى العملية التعليمية التى كان يصدرها العالم أو الفقيه.

وكل من كان يسكن الجامع كان موضع احترام، وبعد أن أبعد المغربيون الأطفال من الدراسة فى المسجد؛ احتراماً للمسجد، وللمحافظة على نظافته وطهارته، فقد كان العمر الذى يلتحق الطالب به للدراسة فى المسجد بحدود (١٢- ١٦ سنة) وربما أكبر أو اقل، وهى تشبه المرحلة المتوسطة فى الوقت الحاضر[٢٣].

أما نظام الدراسة وكيفيته؛ فهى على شكل حلقات دراسية، فكان الأستاذ يجلس فى زاوية من زوايا المسجد، أو يتكئ على إحدى أسطواناته، أو على كرسى[٢٤]. وشهدت مراكش فى عهد المرابطين اهتماماً بالغاً بالمساجد، ومن أشهرها مسجد يوسف بن تاشفين، ومسجد صومعة الطور، ومسجد على بن يوسف بن تاشفين، قد قورن بالجامع الأزهر وجامع القرويين[٢٥].

٣- المدارس:

انتشرت المدارس فى البلدان الإسلامية بعد بناء المدرسة النظامية فى بغداد (٤٥٧هـ)، وقد تظافرت عدة أسباب لظهور المدارس، وهى صعوبة التوفيق بين وظائف

---

[٢١] أحمد بن يحيى الونشريسى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد محيى، دار الإسلام، بيروت، ج٢، ص٢٤٣- ٢٥٦.

[٢٢] روبار برنشيفيك: تاريخ دولة إفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣- ١٥ الميلادى، دار المغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٤م، ج٢، ص٣٧٤- ٣٧٥.

[٢٣] حسين كريم عجيل: الحياة العلمية فى مدينة بلنسية، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٧٦، ص٢٠٩- ٢١٠.

[٢٤] ابن خلدون: المقدمة، دار العودة، بيروت، ١٩٨١، ص٤٦٣.

[٢٥] ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعى: المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصرفى، دار الكتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧، ص٢٥٧.

المسجد المتعددة والتطور الذى واكب الحركة العلمية على مر السنوات فى المغرب العربى الإسلامى، وكذلك ظهور علوم جديدة أخذت تدرس فى المسجد.

أما المدارس فى المغرب العربى؛ فقد ذكرت المصادر أن المدارس بدأت بزمن المرابطين، حيث بنى يوسف بن تاشفين مدرسة (مدرسة الصابرين) فى مدينة فاس التى عرفت فيما بعد بمدرسة (بومدين)، وكذلك مدرسة مدينة مراكش التى عنى بها الحكام المرابطين، أما فى مجال الموحدين؛ فقد قام عبد المؤمن بن على باستدعاء الصبيان من المدن المغربية والأندلس، وإقامتهم عنده لمدة ستة أشهر لتدريسهم العلوم المختلفة[٢٦].

ومن المدارس المذكورة هى (المدرسة الشمالية) التى بناها فى تونس أبو زكريا الحفصى[٢٧]، ومدرسة (مدرسة التوفيق) التى بنتها الأميرة عطف، ومن المدارس مدرسة ابن تافراحين وهو من الموحدين، مدرسة الحلفاويين، ومدرسة فاس الجديدة، ومدرسة العطارين، ومدرسة الصهريج، والمدرسة المصباحية، ومدرسة الوادى[٢٨].

من خلال عدد من النوازل الواقعة بالمغرب الأوسط تبين أن الاهتمام بالمؤسسات التعليمية أو دور العلم تعددت دوائره سواء من طرف العلماء أو من طرف الحكام والأمراء أو من طرف عائلات عموم الشعب، فكانت المساجد فى المرتبة الأولى فى قائمة الأهمية، وهى التى كانت تحتضن مجالس العلماء.

وقد أورد العلامة العارف أبو الفضل قاسم بن سعيد العقبانى المتوفى سنة (٨٥٤/ ١٤٥٠م)[٢٩] على أن أهل قرية "تضامن الجماعة فى بناء المسجد واتخاذ الإمام والمؤدب". ملزماً الجميع بالمشاركة فى ذلك حتى لا تتعطل إقامة الجماعة[٣٠]. وجاءت المدارس فى المرتبة الثانية من حيث الانتشار، فقد ذكر الونشريسى نازلة ببلدة كبيرة فى تلمسان يجرى بها ماء من الأعلى إلى الأسفل وبهذا البلد "حمامات ومدارس ودور"[٣١].

---

[٢٦] أبو على بن محمد بن عبد الملك ابن القطان: نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود على مكى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإسلامية، تطوان د.ت، ص١٤٠.

[٢٧] أبو عبد الله بن أحمد الشماع: الأدلة البينية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر محمد المعمورى، نشر الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٤م، ص٥٦.

[٢٨] محمد التلمسانى ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن، تحقيق: الدكتورة ماريا حيسوس بيفرا، مطبعة أحمد زبانه، الجزائر، ١٩٨١م، ص٤٠٥.

[٢٩] قاسم بن سعيد العقبانى التلمسانى أبو الفضل: وصفه ابن مريم "بشيخ الإسلام ومفتى الأنام، الحافظ القدوة العلامة المجتهد العارف، ولى خطة القضاء فى تلمسان وأحرز فى العلوم قصب السبق وحازه". وذكره المازونى فى نوازله، وجعله فى وفياته، من وفيات سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م).

[٣٠] الونشريسى، المعيار، ج١، ص١٣٩.

[٣١] نفسه، ج٥، ص٣٣٤.

كل هذه النوازل تؤكد كثرة المدارس فى المغرب الأوسط خاصة فى تلمسان، وإذا أردنا معرفة المزيد فإن عبد الرحمن بن خلدون يخبرنا فى كتابه العبر أن بعض حكام تلمسان كانوا يبنون المدارس كما فعل أبو حمو موسى الثانى[٣٢] الذى بنى مدرسة خاصة للعالمين الجليلين الشهيرين بابنى الإمام[٣٣]، وقد جعل أخوه أبو زكريا يحيى بن خلدون وهو يعرف بتلمسان أن من مباهجها كثرة المدارس وذلك فى قوله:" ... وتنصب إليها من أعلى أنهار من ماء غير آسن تتجاذبه أيدى المذانب والأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعليه الدور والحمامات[٣٤].

أما المؤسسة الثالثة التى أوردها الونشريسى فى نوازله المجموعة هى الزوايا التى يرتادها المتصوفة، وهى ظاهرة ارتبط انتشارها– كما يشير المؤرخ المغربى إبراهيم القادرى بوتشيش– بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطى، وذلك لعدة أسباب ليس هذا مكان حصرها[٣٥].

---

[٣٢] أبو حمو موسى الثانى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن تولى عدة مرات بين (٧٦٠- ٧٨٩هـ/ ١٣٥٩- ١٣٨٧م)، أبو حمو موسى الزيانى- حياته وآثاره- الجزائر؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

[٣٣] ابنى الإمام هما الأخوين أبو موسى عيسى، وأبو زيد عبد الرحمن، ابنى محمد بن عبد الله بن الإمام التلمسانى؛ ذكرهما ابن فرحون بأنهما:" فاضلا المغرب فى وقتهما وكانا خصيصين بالسلطان أبى الحسن المرينى... لهما التصانيف المفيدة والعلوم النفيسة"، وأشاد بهما التنبكتى وابن مريم والمقرى التلمسانى وعبد الرحمن بن خلدون فى تاريخه، والونشريسى فى معياره وفى وفياته، توفى أبو موسى سنة ٧٥٠ هـ، بينما توفى أخوه قبله فى سنة ٧٤٣هـ.

[٣٤] يحيى بن خلدون نفسه، ص٨٦، وفى السياق نفسه يذكر لنا المقرى التلمسانى فى النفح أنه رأى أبيات شعر هى من بدائع الدنيا، مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التى بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزيانى، (قد يكون الثانى الذى حكم بين ٧٩١- ٧٦٥هـ/ ١٣٨٩- ١٣٩٣م) (المقرى التلمسانى مصدر سابق، ج ٨، ص١٨٢).

[٣٥] إبراهيم القادرى بوتشيش، المغرب والأندلس فى عصر المرابطين- المجتمع، الذهنيات، الأولياء- تطوان؛ منشورات الجمعية المغربية للدراست الأندلسية، ٢٠٠٤، ط٢، ص١٢٥، وفى السياق نفسه يشير محمد فتحة فى كتابه القيم عن النوازل "أن الموحدين أيضاً لم يقفوا موقفاً معادياً من تيار التصوف بل العكس، فى عهدهم ظهر أقطاب التصوف المغربى واتسع نطاقه ليشمل البوادى والمناطق النائية (محمد فتحة النوازل الفقهية والمجتمع- أبحاث فى تاريخ الغرب الإسلامى من القرن ٦ إلى ٩هـ/ ١٢- ١٥م- الدار البيضاء منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٩، ص١٦٠).

المبحث الثاني

نظم التعليم فى بلاد المغرب وتأثيراتها الأندلسية

أولاً: اهتمام حكام المغرب والأندلس ببناء المدارس:

١- بناء المدارس فى الأندلس

لم يشهد العالم الإسلامى انتشاراً واسعاً للمدارس مع تنوعها وتطورها بمثل ما شهده فى بلاد المغرب العربى والأندلس، فقد كانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد، بيد أنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم، ولذلك أضاف الخليفة الأموى الحكم الثانى (ت ٣٦٦هـ) إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم فى هذه المدارس، وقد كونت المناهج التى كانت تدرس العمود الفقرى لجامعة قرطبة فى عهد الخلافة الأموية فى الأندلس، كما أنشئت الكليات فى كل من غرناطة وطليطلة وإشبيلية ومرسية وألمرية وبلنسية وقادس[٣٦].

٢- بناء المدارس فى بلاد المغرب:

وقد اهتم أمراء وسلاطين المغرب ببناء المدارس، فقد خرجت المدارس التى بناها المرابطون فى المدن والبوادى وخاصة فى منطقة سوس مجموعة من العلماء النابهين فى تخصصات عدة رفعتهم إلى مصاف رجال الفكر فى العالم الإسلامى. وقد بلغت مدارس سوس نحو أربعمائة مدرسة، تحدث محمد المختار السوسى فى كتابه "سوس العالمة" عن خمسين مدرسة منها، وفى "مدارس سوس العتيقة" عن مائة مدرسة منها. [٣٧]

وكانت القبائل هى التى تمول هذه المدارس عن طريق تخصيص بعض أعشار محصولاتها الزراعية لها، وتحبيس بعض الأملاك من أجل الصيانة والتموين وتحمل تكاليف المدرسة، وكانت القبائل السوسية تتنافس فى بناء المدارس بالجبال والسهول، وكانت لكل قبيلة مدرسة أو مدرستان أو ثلاث مدارس، ومن أبرز المدارس التى شيدت فى عصر المرابطين- إضافة إلى ما سبق- نذكر "مدارس سبتة"، وقد كانت هناك عدة مدارس اخرى بطنجة، وأغمات، وسجلماسة، وتلمسان، ومراكش. وكانت هذه المدارس تأوى علم القيروان

---

[٣٦] ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٠٦.

[٣٧] المختار السوسى: هو محمد المختار بن على بن أحمد الإلغى السوسى (١٣١٨- ١٣٨٣خـ/ ١٩٠٠- ١٩٦٣م) مؤرخ، فقيه، أديب، يقول الشعر، ويُعرف بوزير التاج، من كتبه كتاب "المعسول فى تاريخ سوس". انظر: الزركلى: الأعلام ٧/ ٩٣.

وثقافة الأندلس المشهورة، حيث نبغ فيها أعلام كبار، منهم القاضى عياض[٣٨]، وأبو الوليد بن رشد[٣٩] مؤلف كتاب المقدمات الأوائل للمدونة، والبيان والتحصيل، إلى آخر كتبه القيمة[٤٠]".

والذى يجب أن ننبه عليه أن الطلبة فى هذه المدارس – فى المشرق والمغرب– كانوا يكفون المؤنة، من الطعام والشراب والأموال والسكنى، ولذلك عرفت الحضارة الإسلامية نظام المدن الجامعية قبل الغرب بمئات السنين؛ ففى عام ٧٢١هـ أمر سلطان الدولة المرينية فى المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب (ت ٧٣١هـ) ببناء "المدرسة التى بفاس الجديدة، فبنيت أتقن بناء وأحسنه، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن فى كل شهر، وحبس (أوقف) عليها الرباع والضياع؛ ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده[٤١]".

وقد كان السلطان أبو سعيد من أشهر سلاطين المرينيين الذين اهتموا ببناء المدارس، ففى عام ٧٢٣هـ "فى فاتح شعبان منها، أمر السلطان أبو سعيد ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهى المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ أبى محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه فى جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست، وشرع فى بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هناك، وشحنها بالطلبة، ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً لله تعالى[٤٢]".

ثانياً: مهنة المعلم فى بلاد المغرب

بعد الانتشار الكبير للعلم كان من الضرورى إسناد هذه العملية لمن هم أهلاً لها، فظهرت مهنة المعلم، ولما كانت هذه المهمة تتطلب من صاحبها التفرغ لها، كان يستوجب

---

[٣٨] القاضى عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣- ١١٤٩م)، كان إمام وقته فى الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ولى قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفى بمراكش. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣، ٤٨٥.

[٣٩] ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى (٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م) العلامة الفيلسوف، والمعروف بابن رشد الحفيد. ولد بقرطبة، وتوفى بمراكش. انظر: الذهبى: سير الأعلام ٢١/ ٣٠٧- ٣٠٩، وابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٣٦٧.

[٤٠] الحسن السائح: الحضارة المغربية ٢/ ٦٤.

[٤١] أبو العباس الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٣/ ١١١، ١١٢.

[٤٢] المصدر السابق ١١٢/٣.

تأجير من يقوم بها، فظهرت معها مسائل يسأل فيها الناس عن أجرة من يمتهن التعليم، وفى هذا الصدد أفتى السعيد العقبانى[٤٣] بجواز إجازة المعلم كى لا يشغلهم طلب المعيشة عن التعليم؛ وفى ذات النازلة أفتى بعدم طلب المعلم الإذن من شيخه فالتعليم لا يحتاج إلى إجازة[٤٤].

ومن المظاهر التى كانت موجودة خلال الفترة المدروسة اجتياح الغصاب والعرب على كثير من المناطق، وكانوا يهتمون بتعليمهم أبنائهم، فى هذا الصدد أجاز الفقهاء حسب ما جاء فى الدرر عن تعليم القرآن لأولاد الغصاب، وأشياخ الرعايا بأجرة، فأباح الفقهاء أخذ الأجرة منهم مقابل تعليم صبيانهم[٤٥].

كان أهل القرية إذا ما وجدوا معلماً لأبنائهم يتفقون معه حسب العرف السائد عندهم، من بين الشروط التى يتضمنها العقد هو مقدار الأجرة، وهل تكون سنوية أم شهرية، إلى جانب الفترة الزمنية وعدد الأولاد[٤٦]. فبالنسبة للأجرة لم تكن شبيهة بتلك الموجودة فى المدينة، حيث كانت أجرة المعلم فى الحواضر بالنقود بينما كانت تختلف عنها فى البوادى؛ إذ كان أهل القرى والبوادى يتفقون مع المعلم على مقدار مما ينتجون من غلات زراعية، أو حيوانية.

وما دام تعليم الأبناء له أعباء ولم يكن باستطاعة الآباء الالتزام بدفع نفقة المعلم، فقد سعى بعضهم إلى البحث عن حلول كالتطوع لحرث الأرض المحبسة على المسجد ويعصرون زيتونها وكرومها ويمدون الإمام بمنتجها فى موسم الجنى. غير أن هناك من كان الفقر والعوز عائقاً أمامهم فوجهوا أبناءهم للحرفة أو الصنعة عوض التحصيل العلمى بسبب الحاجة والخصاصة[٤٧].

ثالثاً: دور الآباء التعليمى وعلاقتهم بالمعلم

لقد أشار ابن خلدون إلى أهمية تعليم الصبيان القرآن فى الصغر بقوله:".... وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أن التعليم فى الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده..."، وقد جعل الفقهاء أجر الآباء فى تعليم أبنائهم

---

[٤٣] سعيد بن محمد بن محمد العقبانى الإمام الفقيه التلمسانى تولى القضاء لمدة أربعين سنة، قاضى الجماعة فى بجاية، وتلمسان وسلا ومراكش، توفى سنة ٨١١هـ، انظر: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩، ص١٨٩).

[٤٤] الونشريسي، المعيار، ج٨، ص٢٣٦.

[٤٥] المازونى، المصدر السابق، ورقة ٢٤٢ظ.

[٤٦] الونشريسى، المعيار، ج٨، ص٢٤٠.

[٤٧] عبد المالك بكاى، " أسرة الريفية فى المغرب الأوسط من القرن ٧- ١٠ هـ/ ١٣- ١٦م"، مجلة العلوم الاجتماعية العدد ١٧، سبتمبر ٢٠١٣م.

القرآن أعظم من الحج والرباط والجهاد[٤٨]، وكان من المعلوم عند أهل المغرب الأوسط أن تعليم الصبيان يقع على عاتق الآباء، واهتماماً منهم حرص الآباء فى بلاد المغرب على تعليم أبنائهم، على الرغم من الصعاب التى اعترضتهم مثل عدم قدرتهم على الإنفاق وصعوبة إيجاد معلم. فكانوا يجتهدون فى البحث عن معلم القرآن ويتعاقدون معه ومن بين ما كان يتضمنه العقد المدة، والأجرة، وعدد الصبيان، وأحياناً كان المعلم لا يحدد العدد وإذا زاد عن الحد الذى لا يقدر عليه، استعان بمن يعينه غير أن هذه الظاهرة كانت قليلة الوقوع فى البادية لمحدودية الأطفال عكس المدينة.

ولكن لم يكن باستطاعة أهل بعض قرى البوادى تخصيص معلم لأبنائهم[٤٩]، إما لعدم وجود مكان أو لعدم قدرتهم على أجرته، وأحياناً لقلة عددهم، ما يجعلهم يأخذون أبناءهم إلى القرى المجاورة التى يكون بها معلم.

على الرغم من الأعراف التى كانت تنظم العلاقة بين أولياء الأولاد والمعلم، وكذلك العقد الذى كان يبرم بينهم فى البداية إلا أنه كان تظهر خلافات بين الطرفين، ومنها على سبيل المثال كان بعض الأولياء يرتحلون قبل انقضاء المدة المتفق عليها فيطلب المعلم أجرته كاملة، وخلاف آخر كان كثير الوقوع وهو وصول الطفل فى الحفظ إلى الحذقة، حيث يسكت عنها الطرفين ثم يطلبها المعلم، فيأبى الآباء بحجة أنها لم تكن من ضمن الشروط.[٥٠]

رابعاً: ظاهرة خميس الطالب

من أهم مظاهر التى تجلب الانتباه إليها فى التعليم فى بلاد المغرب. ظاهرة "خميس الطالب". وهذه الظاهرة كانت منتشرة بشكل واسع فى معظم بوادى وقرى المغرب الأوسط. ولا نجازف إن قلنا أنها كانت من مميزات التعليم القرآنى التى اشتهر بها أهل البادية أكثر من أهل الحواضر، وظلوا يمارسونها حتى تحولت إلى عرف لا يمكن الإقلاع عنه، بقيت هذه الظاهرة كما هى.

فالخميس هنا المقصود به يوم الخميس، والطالب يقصد به معلم القرآن إذ درج أهل البوادى على تسمية معلم القرآن عندهم بالطالب، فقد كانت جميع أسر أهل القرية، أو المنطقة الواحدة، يخصصوا نصيباً معلوماً مما ينتجون يعطونه للمعلم القرآن يوم كل خميس؟

---

[٤٨] الونشريسى، المعيار، ج٨، ص٢٥٠.
[٤٩] الونشريسى المعيار، ج١، ص١٣٩.
[٥٠] عبد المالك بكاى، مرجع سابق، ص ٦٦.

سواء ممن له ولد يقرأ أو ممن ليس له ولد، وكان يختلف نوعه ومقداره من قرية إلى أخرى. وقد أفادنا بهذه الظاهرة المازونى فى إحدى نوازله، ونظرا لأهميتها نذكرها كاملة؛ فقد سئل أبو الفضل العقبانى[٥١] عما يأخذه المعلم من الزبد فى البادية فى فصل الربيع يجعلون له مخضة زبد عن كل من بيوت الحلة، على من عنده الولد وعن من لا ولد له يسمونه خميس الطالب[٥٢] هل يسوغ له ذلك أم لا؟ فكان جوابه ما يأخذه المعلم ممن لا ولد له من الزبد سايغ له إن قصد المعطى التبرك.

فمن خلال النازلة يمكن أن نستخلص من هذه الظاهرة:

- تخصيص يوم يعطى فيه (خميس الطالب) وفى الغالب كان يوم الخميس.
- تعطى من غالب ما ينتج أهل البلد أو القرية الواحدة.
- قد يتغير هذا الجعل من فصل إلى آخر أى بحسب المنتوج الغالب فى كل موسم.
- يشارك فيها جميع أهل البلدة بما فيهم من ليس له ولد يقرأ.

خامساً: الألقاب العلمية فى بلاد المغرب والأندلس:

الإمام: هو الشخص الذى يقتدى به أما فى الدولة الإسلامية، فالإمام منصب رفيع إذ كان الإمام هو الذى يؤم الناس فى الصلاة، أصبح لقب الإمام فى المجال العلمى هو العالم المتميز بعلمه وله شهرة واسعة ومن الأئمة المشهورين فى المغرب القاضى عياض فكان إماماً فى الفقه والحديث، وأبو عمر وعثمان بن عبد الله السلالجى وعبد الله بن أبى الربيع[٥٣].

الشيخ: وهو لقب يطلق على العالم الغزير بعلمه فى إمكانيته العلمية وإمكانيته فى العلم والفضيلة والمقام، محمد بن عبد الله المورورى يلقب بالشيخ المقري وأحمد بن على بن محمد السماتى شيخ العلم[٥٤].

المدرس: وهو الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من الفقه والحديث والتفسير، ومن المدرسين البارزين محمد بن عمر بن قطري الزبيدى مدرساً للنحو والعربية فى سبتة وأشهر المدرسين كذلك ابن عرفة[٥٥].

---

[٥١] أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقبانى، إمام ومفتى تلمسانى تولى قضاء تلمسان فى صغره ومارس التدريس توفى سنة ٨٥٤هـ، ودفن بجوار قبر الشيخ ابن مرزقن، أحمد بابا التنبكتين المصدر السابق، ص٣٦٥)

[٥٢] عبد المالك بكاى، مرجع سابق، ص ١٤٣.

[٥٣] ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، ص١٧٨.

[٥٤] القاضى عياض: الغنية، ص١٤٧.

[٥٥] أبو العباس شهاب التلمسانى المقرى: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، د.ت) ج٣، ص٣٦.

العالم والعلامة: ومعناه المبالغة فى وصف العالم بما لديه من علم غزير، وأشهر العلامات هو موسى بن سليمان اللخمى عالماً بالقراءات وعياض عالماً بالحديث والإدريسى عالماً فى الجغرافية[٥٦].

الأستاذ: وهو لقب خاص كان يطلق على المعلمين الذين كانوا متميزين جداً فى مجال التعليم[٥٧].

المعلمون والمؤدبون: المعلمون لقب أطلق على الأشخاص الذين يعلمون الصبيان فى المرحلة الأولى، وكذلك المؤدب يطلق على معلم أولاد السلاطين والأمراء حيث يجب أن يكون المؤدب متميزاً لديه إطلاع فى مختلف العلوم[٥٨].

ومن أشهر المعلمين فى دولة المغرب هم:

١- الأمير القاضى العلامة أسد بن الفرات بن سنان (ت٢١٣هـ)

٢- القارئ المشهور حسنون المعروف بابن زبيبة الدباغ (أواسط المائة الثالثة)

٣- الداعية الشيعى الفاطمى أبو عبد الله الصنعانى (٢٩٨)

سادساً: طرق التعليم فى الكتاتيب والمساجد والمدارس

هناك عدة طريق للتعليم من أبرزها:

السماع: ونعنى به أن يسمع الطالب فيه من لفظ شيخه ويقول السامع عادة حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وسمعت فلان، وكذلك بعض الطلاب لا يكتفى بالسماع من شيخ واحد بل يسمع من عدة شيوخ فى العلم نفسه، ومنهم محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجى[٥٩].

طريقة الحفظ والاستظهار: وهى تعتمد على ذاكرة الطالب مما دفع الطالب إلى التركيز فى ذاكرته لقلة الموارد التى تساعده على حفظ الدرس وتقوية الذاكرة عنده[٦٠].

وقد ذكر ابن خلدون فى المقدمة أن أهل المغرب يبالغون فى الحفظ والتقيد فيه إلى درجة منعتهم من النقد والتحليل، وهى طريقة عبر عنها مذمومة إذا بالغوا فيها[٦١].

---

[٥٦] عباس بن إبراهيم المراكشى، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ط١، المطبعة الجديدة، فاس ١٩٣٧م، ص١١٥- ١١٦.

[٥٧] إبراهيم على العكش، التربية والتعليم فى الأندلس، ط١، دار الفيحاء، عمان ١٩٨٦م، ص١٣.

[٥٨] خليل طوطح: التربية عند العرب، المطبعة التجارية، القدس، د.ت، ص٤٨.

[٥٩] القاضى عياض، الألماع إلى معرفة أصول الرواية والسماع، تحقيق: السيد أحمد الصقر، ط١، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م، ص٦٩.

[٦٠] ابن خلدون: المقدمة، ص٤٧٩.

[٦١] ابن خلدون: مرجع سابق، ص٣٤٦.

القراءة والإقراء: حيث يقوم المدرس بشرح كل الفقرات التى يمليها على الطالب أو تكتب هذه الشروح على هامش كل ورقة[٦٢]، وقد شاعت هذه الطريقة فى التعليم فى المسجد والمدارس، وقد كان لقب المقرى واضحاً فى المدارس والمساجد[٦٣].

ظاهرة تزويق الألواح: من الظواهر التى تستدعى أن نتوقف عندها، ظاهرة تزويق لوحة حفظ القرآن خلال المناسبات، وعند الحذقة وهذه الظاهرة عرفت انتشارا واسعاً ولم تتوقف بل ظل وجودها إلى السنين الأخيرة من زماننا هذا؛ قبل الحديث عن هذه العادة الحميدة علينا أن نتوقف عند الحذقة لنعرف ما المقصود بها؟ وما علاقتها بتعليم القرآن؟

جاء فى الصحاح حذق الصبى القرآن والعمل يحذق حذقا، وحَذاقة وحِذاقة إذا مهر فيه؛ وحذق بالكسر حذقا؛ ويقال لليوم الذى يختم فيه القرآن: هذا يوم حذاقه[٦٤].

وعندما يصل المتعلم بالحفظ إلى منزلة "الحذقة" يقيم ما يشبه حفل "التخرج"، ليعلم جميع أهل البلد بلوغه الحذق. فيجتهد من أجل تكريم معلمه تقديرا له، وذلك من خلال ما سيجمعه من تبرعات، إذ جرت العادة أن يقوم المتعلم "بتزويق" لوحته وذلك بكتابة آيات قرآنية فى وسط اللوحة تكون الآيات دالة على الحذقة التى وصلها المتعلم–، ويرسم فى إطار اللوحة أشكال هندسية متناسقة ومزركشة بألوان مختلفة، ثم يحملها ويطوف بها فى بلدته، وأحياناً يخرج إلى القرى المحاورة فيتبرعون له كل بحسب قدرته، وفى النهاية يقدم ما جمعه من تبرعات، وهبات لمعلمه اعترافً بجميله الذى يبذله فى تلقين القرآن الكريم. وكان التنافس شديداً بين المتخرجين فى "تزويق" لوحاتهم، كل واحد يجتهد لتكون لوحته جذابة ويجمع أكثر من غيره.

أجور المعلمين والمدرسين فى الكتاتيب: كانت أجور المعلمين فى الكتاتيب تؤخذ من أولياء الأمور وكانت على شكل مبالغ نقدية أو مواد عينية (مواد غذائية أو غيرها) كان هذا أيام المرابطين والموحدين حين كانت تعطى مساعدات للطلاب وملابس وبعض وجبات الطعام. أما الدراسة فى المسجد؛ فهى المرحلة الثانية، وهى عند بلوغ الطالب فكان المدربين يأخذون أجورهم من الأهالى. [٦٥]

---

[٦٢] القاضى عياض: الإعلام بحدود قواعد الإسلام: تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م، ص٢٠١- ٢٠٢.

[٦٣] القاضى عياض: الفنية فى فهرس شيوخ عياض، ص٢٧١- ٢٨٣.

[٦٤] إسماعيل بن حماد المهرى، "الصحاح"، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج٦، دار العلم للملايين، ص٤، بيرون، لبنان، ١٩٩٠، ص١٤٥٦.

[٦٥] ابن سحنون: آداب المعلمين، ص٦٧؛ الفاسى: الرسالة المفصلة، ج٢، ص١٣٤؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٤، ص٢٣٩.

الإجازات العلمية: الإجازة فى الاصطلاح الإسلامى معروفة وهى حالياً (الشهادة الدراسية) وتكون هذه الإجازة مدونة ومحتومة بختم الشيخ هذه الإجازة أصل من أصول العلوم كافة، لأنها بمثابة إذن أو رخصة، والإجازة لا تمنح إلا للذين أكملوا العلم الذى يرغبون بإجازاته وكانوا على قدر كبير من العلم والحفظ والثقة فى نقل ما تعلموا بصدق وأمانة، وهى أوسع من طرق تعليم الحديث والفقه(٦٦)، فكان لزاماً على العالم عنده عودة إلى دياره يحمل إجازة فى علمه من أين وهذا كان معروفاً بين المغرب والمشرق(٦٧).

سابعاً: الحياة المدرسية فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية:

حاولت الباحثة خلال هذا الجزء تلمس الحياة المدرسية باعتبارها ذلك التنظيم التربوى والإدارى والمهنى الذى كان يقوم عليه النظام التعليمى والذى يشمل: الأسلاك التعليمية، والمناهج والطرق الدراسية والموارد البشرية، والكفاءة المهنية للمدرسين، وبما أن ذلك لم يكن بمعزل عن الحراك الاجتماعى فإن الحياة المدرسية تجاوزت تلك الجوانب المهنية والتقنية وتأثرت أيضاً بنبض المجتمع باعتبارها إحدى منافذ إعادة إنتاج المجتمع، وأداة للتحكم فى الزمن المدرسى باعتباره إيقاعاً اجتماعياً وليس زمناً بيولوجياً، وتناولت الباحثة بالتحليل مختلف أوجه الحياة المدرسية من خلال الأسلاك التعليمية التى تم تقسيمها إلى تعليم أولى شكل قاعدة النظام التعليمى بالمغرب والأندلس خلال المرحلة الوسيطة باعتباره مكملاً للدور التربوى للأسرة ومتداخلاً معه، مبرزتاً بذلك المعارف والكفايات المطلوبة وأمكنة التدريس متمثلة فى الكتاب وطرق التلقين التى كانت تعتمد على الحفظ(٦٨).

أما النوع الثانى فهو التعليم المتوسط والعالى، والذى ارتبط بالتعليم النظامى، وقد انتظمت معالم هذا السلك خلال العهد المرينى، وقد اختلفت مدة الدراسة به ومكانها وأهمية الشيوخ حسب ظروف الطالب كما تميزت علاقة المدرسين وطلبتهم بهذا السلك باندماج البعد التربوى بالبعد الاجتماعى، كما تميز بدور كبير للمتصوفة، وإلى جانب هذا التعليم نشط محو الأمية وتعليم الكبار، هذا الأخير الذى شكل إحدى دعائم المشاريع الإصلاحية للزعماء السياسيين بالمغرب والأندلس تمهيداً لقيام دولهم والإطاحة بخصومهم فقد اعتد على ذلك عبد الله بن ياسين أثناء التهيئ لقيام الدولة المرابطية من خلال تعليم القرآن والمذهب المالكى. (٦٩)

(٦٦) القاضى عياض، مرجع سابق، ص٨٨.
(٦٧) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٥٢- ٢٧٣.
(٦٨) سعيد بن حمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، عدد ١٢، ٢٠١١م.
(٦٩) ابن سحنون، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

ومن أوجه الحياة المدرسية التى تطرق إليها الباحثة المناهج والطرق التعليمية والإيقاعات المدرسية، فالمناهج اختلفت بين بلاد المغرب والأندلس حيث برمج المغاربة القرآن الكريم فى التعليم الأولى وبعده علوم الخط بالمدارس، أما بالأندلس فكانت العادة أن يجمعوا التدريس بين القرآن وعلوم اللغة، لتختلف بذلك الكفايات باختلاف المناهج، أما الطرق التعليمية فتكاد تكون متشابهة بين العدوتين وأهمها السماع للفظ الشيخ، والعرض، والإملاء، أو التحديث والرواية، والإجازة، والمناظرة، والمناولة، والمذاكرة. لكن الأجازة كانت أشهر الطرق وتعنى ترخيص الشيخ لطالبه والإذن له بتبليغ ما تلقاه عنه. وفيما يخص الإيقاعات المدرسية فتميزت فى الغالب بانطلاق الدراسة بعد صلاة الصبح، أو بين صلاتى المغرب والعشاء، أما بمدارس فاس المرينية، فكانت الدروس تلقى صباحاً ومساءً، وكانت تختلف باختلاف فصول السنة، أما العطل المدرسية الأسبوعية فكانت يوم الجمعة على غرار باقى الحرف لاعتبارات دينية، لتتحول بعد ذلك إلى يوم الأحد خلال العهد الوطاسى، وفى استقرائه للمواد البشرية والهيئة العاملة بالمدارس المغربية والأندلسية خلال العصر الوسيط، فقد تكونت زيادة على الطلبة من الإمام والمؤذن والمدرسين والقيم والبواب كل حسب اختصاصه، أما هيئة التدريس فقد تم التمييز بينها حسب التخصصات العلمية من جانب آخر تفاوتت الكفاءة العلمية للمدرسين بتفاوت مؤهلاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والسلك الذى يمارسون فيه.

ثامناً: المشاريع الإصلاحية لنظام التعليم فى بلاد المغرب

لقد كان من البديهى أن تعترض النظام التعليمى بالمغرب والأندلس معيقات تحد من فعاليته وجودته ونسبها الباحث من خلال دراسته إما إلى قلة كفاءة المدرسين، أو تراجع التطور الحضارى فى العدوتين خصوصاً بعد معركة العقاب، وقد أدى إنشاء المدارس واقتصارها على المدن الكبرى إلى التحاق من هب ودب بكراسى التعليم، ومما زاد من معاناة النظام التعليمى الثغرات التى شابت مناهج التعليم ومقرراته واعتمادها على كثرة الاختصارات والأراجيز التعليمية، مما أخل بالبلاغة وعسر الفهم إضافة إلى سوء برمجة المقررات فى بعض الأسلاك التعليمية، وضعفت الدراية بطرق التدريس، كل ذلك ساهم فى تفشى ظاهرة الانقطاع عن الدراسة، ولتجاوز هذه الاختلالات التى شابت النظام التعليمى بالمغرب والأندلس، تعددت المشاريع الإصلاحية، وقد اقتصر الباحث على نموذجان للخطاب الإصلاحى للتعليم بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، وهما لكل من أبى بكر العربى

(٥٤٣هـ/ ١١٤٨م). وعبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) مع مقارنة بين الأنظمة الدراسية بين بلدان الغرب الإسلامى. [٧٠]

القانون التربوى لأبى بكر بن العربى المعافرى:

وضع ابن العربى مشروعاً لإصلاح التعليم سماه "القانون"، وضع فيه أولويات التعليم الأولى والغاية من تعليم بعض المواد الدراسية وفق ترتيب زمنى محدد حتى تحقق الغاية منها، وقد قدم ابن العربى بالموازاة مع ذلك البرنامج توجيهات تربوية كفيلة فى نظره بتحقيق الكفايات المطلوبة فى هذه المرحلة التعليمية، كما حدد شروط تمكن المتعلم من بلوغ مراميه، وبالمثل قنن العلاقة التربوية والأخلاقية التى تربط بين المعلم والمتعلم، بما يضمن حقوقهما وواجباتهم، مع تركيز ابن العربى على أهمية التشجيع على التعليم، وقد استمد المشروع الإصلاحى لابن العربى وجاهته حسب الكاتب مما ألفه من مصنفات فى شئون التربية والتعليم؛ مثل "كتاب آداب المعلمين"، و"مراقى الزلف"، الذى يتضمن منهجاً تربوياً وأخلاقياً رصينا فى تعليم الأطفال. علاوة على ذلك كان ابن العربى قد تلقى تعليمه الأول بأشبيلية وفق ذلك المنهاج الدراسى تقريباً وفقاً لما رواه عن طفولته وتعليمه.

المشروع التربوى لابن خلدون:

نوه ابن خلدون بالمشروع التربوى لابن العربى لكنه أبرز صعوبة تطبيقه على أرض الواقع، وبذلك ضمن مقدمته فصولا تضمنت تصوره لإصلاح المناهج التعليمية التقليدية المضيعة للوقت والجهد فى نظره، مؤكدا على أهمية الاقتصار على المسائل المذهبية، كما اقترح مبدأ التدريج فى التربية والتكوين وذلك بأن يتلقى المتعلم فى البداية أساسيات العلوم بالشرح المجمل المنسجم مع مراحل نموه وجوانب شخصيته، مع مراعاة استعداد المتعلم وميوله التعليمية وقدراته الحسية، كما دعى إلى التخفيف من المقررات الدراسية باعتبار أثقال كاهل المتعلمين يزيد من أزمة النظام التعليمى، ولم يفت ابن خلدون التشديد على حسب تدبير الإيقاعات المدرسية ضمانا لجودة التعلمات، وذلك بالتحذير من تمديد الحصص، أو الفصل بينهما لفترة طويلة. وينصح ابن خلدون باعتماد التخصص تركيزا للجهود.

المقارنة بين المنظومة التعليمية بين بلاد المغرب ودول الغرب الإسلامي:

انطلاقا من رؤية ابن خلدون عند قيام الباحثة بعقد مقارنة بين المناهج الدراسية فى بلاد المغرب بالمناهج الدراسية فى بلاد الأندلس فإن ذلك يفيد فى معرفة نوع المواد التعليمية

[٧٠] سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص ٦٠.

الملقنة للأطفال، وأثر ذلك على القدرات المكتسبة خلال العصر الوسيط فى كل من المغرب الأقصى، والأندلس، وإفريقية. حيث كان فى المغرب الأقصى يتم التركيز على تدريس القرآن الكريم ورسمه فى الأقسام التحضيرية. أما فى الأندلس فيردفون تدريس القرآن الكريم علوم اللغة لتكون عونا للطالب على الفهم، وهذا الخلل المنهجي هو الذى فطن له ابن العربى– كما أشرنا سابقا واقترح تقديم العربية والشعر على باقى العلوم، أما فى إفريقية فقد تم توسيع قاعدة البرامج الدراسية، وذلك بالجمع بين القرآن الكريم والسنة النبوية وأوليات العلوم، وهكذا وبتباين المناهج الدراسية بين بلاد المغرب وبلاد الغرب الإسلامي كالأندلس تباينت ملكات وقدرات المتلقين فى كل قطر.

الخاتمة

تميزت فترة القرون الثلاثة الأخيرة من العصر الوسيط بانتشار التعليم فى كامل ربوع بلاد المغرب الأوسط، ولم يكن مقتصراً على المدن فقط بل وصل إلى جميع القرى فى البوادى.

شهدت فترة الثلاثة قرون الأخيرة من العصر الوسيط، أرقى نهضة علمية فى بلاد المغرب، فقد وصل فيها العلم فى بعض مدنه درجة التنافس مع بقية مدن أصقاع العالم، وذلك لعناية الأولياء، والحكام للعلم، العلماء، وكثرة المراكز العلمية من مدارس، مساجد، فظهرت أسماء لامعة تركت لنا كماً هائلاً من المؤلفات فى مختلف العلوم.

كانت دور العلم متنوعة ومتعددة ومنتشرة عبر مختلف أقطار المغرب الأوسط، سواء تعلق الأمر بالمساجد الجامعة أو المساجد الصغيرة التى انتشرت فى المدن والبوادى، وإلى جانبها رأينا المدارس التى كانت تستقبل الطلبة من مختلف الأعمار، ثم وجدناها طبقت حتى النظام الداخلى المعروف فى أيامنا، حيث كان الطلبة يبيتون فيها سنين عديدة، والتى أكد لنا الونشريسى أنها كانت كثيرة، وجعلها من مفسدات التعليم، كما كانت الزوايا المنتشرة هنا وهناك– خاصة فى هذا العصر الذى كثرت فيه الطرق الصوفية– والدكاكين أو الحوانيت التى كان يكترثها الأساتذة أو الآباء تقوم بدور مساعد وهام فى نشر التعليم. وكان المعلم أو المؤدب يقوم بدوره التعليمى فى المدن وفى البوادى على السواء، وكان له أجر على ذلك سواء من الأحباس أو من أهل المتعلمين، الذين سعوا لتعليم أبنائهم، وقد أجاز بعض الفقهاء منح جزء من أموال الزكاة للتلاميذ والطلبة الذين لا يملكون مصاريف التعليم.

أما الأساس الثالث للعملية التعليمية وهو المنهج، فقد كان واضحاً مما تقدم أنه اقتصر على العلوم الدينية التى كان على رأسها القرآن الكريم وحديث النبى (ﷺ). ثم يأتى الفقه (الحلال والحرام) فى المرتبة الثانية، والذى اختص بمذهب الإمام مالك، لكون كل الفقهاء والعلماء والمؤدبين فى ذلك الوقت كانوا مالكية، أما فى المرتبة الثالثة فقد جاء "علم الكلام والجدل وعلم القياس والنظر والاستدلال بأدلة المعانى والمعقول". وهى علوم دخيلة كما أشار الونشريسى الذى اعترض على تدريسها.

بعد هذه الدراسة عن نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية نجد أن المغرب قد استفاد ما فائدة من الدين الحنيف وأخذه من علوم القرآن ما أخذ حتى أن الأندلس كانت المسرح الحقيقى لعرض إمكانيات العلماء المغاربة فى خلق مستوى علمى

عال فى هذه البلاد التى اشتغفت بالعلم، ثم عادت الجميل للمغرب بأن أخذت هى تنشر العلوم فيه، فكانت العملية تبادلية توحى برقى فكر العلماء، وعدم تحيزهم لبلد أو حدود أو قومية فى نشر العلوم.

لقد كان هدف الباحثة من خلال تحليلها لمختلف مباحث هذه الدراسة هو الوقوف على عدد من القضايا التى تدخل ضمن اللامفكر فيه لدى المهتمين بالبحث التاريخى، رغم أهميتها فى التاريخ الاقتصادى، والاجتماعى، والسياسى، والثقافى خلال العصر الوسيط، ومن خلال الدراسة تبين الموقف الايجابى لمختلف فئات المجتمع والدولة من المسألة التعليمية، وقيمة الرحلة العلمية فى المنظومة التعليمية الوسيطية قبل أن تتراجع لحساب التعليم المدرسى النظامى المرتبط بالتحولات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية لبلاد المغرب والأندلس، مما جعله فى بؤرة التجاذبات، أما المناهج والطرق فاختلفت باختلاف الأسلاك والغايات وكفاءات المدرسين.

ولا يمكن تصور نهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية دون إرساء نظم تعليمية تطرح أفقاً لها ضمان الكرامة الإنسانية، وفى هذا السياق لن تصل هذه النظم التعليمية إلى أهدافها إلا بالإعداد الجيد لمختلف الأطر المكلفة بتنفيذ برامجها وعلى رأسهم هيئة التدريس، ويمكن القول أن تقديم خدمة تعليمية جيدة رهين بالمستوى الكمي والنوعي لهيئة التدريس، ورهين أيضاً بحسن تدبير وتوزيع الموارد المالية والبشرية فى تناغم تام مع التحولات التى تشهدها البنية المجتمعية المغربية، ومن هنا تبرز أهمية التخطيط الاستراتيجي الذى لن يبلغ نتائجه إلا باعتباره جزءاً فى مشروع مجتمعي متكامل موفر له كل شروط النجاح والتطور.

الخلاصة الأساسية التى توصل إليها الباحثة فى دراسته أن التعليم يتقدم بتقدم المجتمع ويتخلف بتخلفه، مما يكسب البحث التاريخى مكانته، ويدلل على راهنية بعض قضاياه. ومن خلال هذه الدراسة نحاول تجاوز المقاربات التاريخية التقليدية، واقتحام قضايا منسية ومسكوت عنها ومرتبطة بلب انشغالات المجتمع، وهو ما سيساعد لا محالة فى حل أخطاء اليوم باستحضار أخطاء الأمس وهفواته.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم القادرى بوتشيش، المغرب والأندلس فى عصر المرابطين- المجتمع، الذهنيات، الأولياء، تطوان، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ٢٠٠٤م.
٢. إبراهيم على العكش: التربية والتعليم فى الأندلس، ط١، دار الفيحاء، عمان، ١٩٨٦م.
٣. ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعى، المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصرفى، دار الكتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
٤. ابن سحنون محمد (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، آداب المعلمين، منشور ضمن كتاب الفكر التربوى عند ابن سحنون والفاسى، إشراف عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥م.
٥. أبو زكريا يحيى بن موسى المغيلى المازونى، الدرر المكنونة فى نوازل مازونة، تحقيق مختار حسانى، الجزائر؛ دار الكتاب العربى، ٢٠٠٩م.
٦. أبو عبد الله بن أحمد الشماع: الأدلة البينية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر محمد المعمورى، نشر الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٤م.
٧. أبو على بن محمد بن عبد الملك ابن القطان: نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود على مكى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإسلامية، تطوان، د.ت.
٨. أحمد بن يحيى الونشريسى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج٢.
٩. أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.
١٠. إسماعيل بن حماد المهرى، "الصحاح"، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.
١١. بشير رمضان التليسى، " الاتجاهات الثقافية فى الغرب الإسلامى"، دار المدار الإسلامى، بنغازى، ليبيا، ٢٠٠٣.
١٢. حسين كريم عجيل: الحياة العلمية فى مدينة بلنسية، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٧٦م.
١٣. خليل طوطح: التربية عند العرب، المطبعة التجارية، القدس، د.ت
١٤. روبار برنشيفيك: تاريخ دولة إفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣- ١٥ الميلادى، دار المغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٤م.
١٥. سعيد بن حمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، عدد ١٢، ٢٠١١م.
١٦. سعيد بنحمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، ع١٢، منشورات الأمن، المغرب، ٢٠١١م، ص ١٢٣

١٧. عباس بن إبراهيم المراكشى: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ط١، المطبعة الجديدة، (فاس ١٩٣٧م)، ص١١٥- ١١٦.
١٨. عبد الحليم عويس، دولة بنى حماد، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، مصر.
١٩. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزيانى- حياته وآثاره- الجزائر؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.
٢٠. عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م.
٢١. عبد المالك بكاى، " أسرة الريفية فى المغرب الأوسط من القرن ٧- ١٠ هـ/ ١٣- ١٦م"، مجلة العلوم الاجتماعية العدد ١٧، سبتمبر ٢٠١٣.
٢٢. على عشي، "المغرب الأوسط فى العهد الموحدى، مذكرة ماجستير فى التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ٢٠١٢م.
٢٣. قاسمى بختاوي؛ التعليم بالكتاب بالمغرب الأوسط أيام حكم بنى عبد الواد"، دورية كان التاريخية، العدد الثانى عشر، جويلية ٢٠١١م.
٢٤. القاضى عياض: الإعلام بحدود قواعد الإسلام: تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م.
٢٥. القاضى عياض: الألماع إلى معرفة أصول الرواية والسماع، تحقيق: السيد أحمد الصقر، ط١، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م.
٢٦. أبو العباس شهاب التلمسانى المقرى: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، تحقيق: مصطفى السقا،ج٣، القاهرة.
٢٧. محمد التلمسانى ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن، تحقيق: الدكتورة ماريا حيسوس بيفرا، مطبعة أحمد زبانه، الجزائر، ١٩٨١م.
٢٨. محمد فتحة النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث فى تاريخ الغرب الإسلامى من القرن ٦ إلى ٩هـ/ ١٢- ١٥م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.
٢٩. محمد مرتضى الزبيدى، تاج العروس، ج٣٧، تحقيق مصطفى حجازى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ٢٠٠١م.
٣٠. الونشريسى (أبو العباس أحمد بن يحى ت ٩١٤هـ/ ١٥١١م)، "المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، ج٧، تحقيق: محمد حجى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨١م.
٣١. يوسف بن يحيى بن عيسى التادلى ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقق: أودلف فورة، مطبوعات إفريقية الشمالية، الفنية، الرباط، ١٩٥٨م.

٠١٠٠٢٠٣١٣٥٥